هل نزل القرآن بلسان قريش، أم نزل بلسان العرب؟

قد يسأل سائل: وما علاقة هذا العنوان بموضوع الكتاب «بلاد الشام من جزيرة العرب»؟.

الجواب: إن صلة هذا العنوان بموضوع الكتاب قوية وجذرية؛ فقد تحدثنا في فصول الكتاب عن عروبة بلاد الشام القديمة، وأن جذور العرب كانت في بلاد الشام، كما كانت في الحجاز ونجد، وأن اللغة العربية تجذرت في الشام، كما تجذرت في الحجاز ونجد، فالشام عربيّ، كما أن نجداً والحجاز عربيان، وعروبة الشام لا تقل عن عروبة الحجاز واليمن.. وإذا ثبت أن القرآن نزل بلسان عربي عام، فإن للشام حظاً من لغة القرآن.

لقد نقلت أكثر كتب اللغة: أن القرآن نزل بلسان قريش، وقد أخذت هذه المصادر حكمها مما عنون له البخاري في كتاب «الصحيح» (ك/ المناقب/ 3) باب: نزل القرآن بلسان قريش، وروى عن أنس: «أن عثمان دعا زيد بن ثابت، وعبد الله ابن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف؛ (أي: الصحف المفرقة)، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا ذلك»، وكان «زيد بن ثابت» رابع ثلاثة رجال لم يكن قرشياً، وإنما كان خزرجياً من الأنصار، والأوس والخزرج كما تقول كتب الأنساب، من اليمن، فلماذا جعل عثمانُ زيد بن ثابت طرفاً منفرداً قد يختلف مع القرشيين الثلاثة؟ ألأنه خزرجي يمني؟ ولكننا لا نعرف أن لأهل المدينة - في العصر الجاهلي وصدر الإسلام - لغة خاصة بهم، فاللهجة القرشية قد تسمى اللغة الحجازية، والمدينة من الحجاز، وقد قرأنا شعر الأنصار، أو شعر أهل المدينة في الجاهلية وزمن رسول الله، فلم نعرف فيه اختلافاً عن شعر أهل مكة، وهاجت معركة شعرية بين أهل مكة، وأهل المدينة، وكان كلاهما يفهم شعر الآخر.

إن قول عثمان: «بلسان قريش» لا يؤخذ على ظاهره، ولا يُفسَّرُ تفسيراً ضيقاً، وإنما يُفْهمُ مجازياً؛ بإطلاق الجزء على الكل، يُفهم على أن «لسان قريش» وقت نزول القرآن قد استوعب اللهجات العربية كلها، أو أكثرها، وصار لسانَ العرب بعامّة، فهو بمعنى: نزل القرآن بلسان العرب جميعاً . .

وقد هيأ الله للهجة التي سادت في مكة قبل نزول القرآن: أن تصب فيها لهجات العرب من الأقطار كافة. . فهناك الحج الذي لا ينقطع، وهناك الأسواق التجارية التي تجمع العرب كافة، وهناك الأسفار إلى الشام واليمن (رحلة الشتاء والصيف)، لقد أصبحت لغة قريش الحاضنة لأكثر اللهجات العربية، وجدير بها أن يُقال: إنها اللغة العربية. . فإذا نزل القرآن بلسان قريش فإنه يكون قد نزل باللسان العربي. .

وكان البخاريُّ ـ رحمه الله ـ فقيهاً لغوياً، زيادة على فقهه في العبادات والمعاملات عندما بوَّب في كتاب «فضائل القرآن» باب: «نزل القرآن بلسان قريش والعرب»، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾.

قال ابن حجر في «الفتح» (جـ9/ 9): «وأما عطف العرب على «لسان قريش»، فمن عطف العام على الخاص؛ لأن قريشاً من العرب. وأما ما ذكره من الآيتين، فهو حجة لذلك».

وقد أخرج ابن أبي داود في «المصاحف» من طريق أخرى عن عمر قال: «إذا اختلفتم في اللغة، فاكتبوها بلسان مضر». ومضر هو ابن نزار بن معدّ بن عدنان، وإليه تنتهي أنساب قريش، وهذيل وقيس وغيرهم. (بل تنتهي إليه أنساب عرب الشمال، كافة).

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: «معنى قول عثمان: نزل القرآن بلسان قريش»؛ أي: معظمه (يعني أن لسان قريش يتضمن ألسنة قبائل العرب، ولقريش لسان من عدد من الألسنة)، قال: وإنه لم تقم دلالة قاطعة على أن جميعه بلسان قريش؛ فإن ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أنه نزل بجميع ألسنة العرب (وجميع الألسنة) أو جُمع في (اللغة العربية)، ومَنْ زعم أنه أراد مضر

obeikandi.com

دون ربيعة، أو هما دون اليمن، أو قريشاً دون غيرهم، فعليه البيان؛ لأن اسم العرب يتناول الجميع تناولاً واحداً، ولو ساغت هذه الدعوى، لساغ للآخر أن يقول: نزل بلسان بني هاشم مثلاً؛ لأنهم أقرب نسباً إلى النبي ﷺ من سائر قريش».

• فإذا ثبت أن القرآن نزل بلسان عربي، أو باللغة الجامعة، وهي العربية، فإننا نقول: إن العربية التي نزل بها القرآن، لم ينزل بها الوحي دفعة واحدة، ولم تخلق من العدم، وإنما هي تراكم خبرات وأزمنة متطاولة ترجع إلى آلاف السنين قبل الإسلام. وكانت قبل اللغة العربية الأخيرة لغات ولهجات عتيقة، لم تمت، وإنما دخل معظمها في اللغة الأخيرة. فإذا كانت اللغة العربية القرآنية قد جمعت لهجات القبائل العربية المعاصرة لنزول القرآن، فإنها أخذت أيضاً من اللهجات العربية العتيقة. فليس من الصحيح أن نضيّق زمن مصطلح اللغة العربية فنحصره في اللغة العربية الفصيحة القرآنية، ولكن اللغة العربية موغلة في القدم، كما أن الجنس العربي موغل في القدم، وإذا حسبنا إبراهيم وإسماعيل عربيين، فإن لغتهما ستكون عربية بلهجة مغايرة، ولكن الأصل والجذر واحد. واللهجة هنا بمعنى: كيف نلفظ الحروف في الكلمة؟ وليس في وجود الحروف ذاتها، وبناءً عليه، فإن اللغة العربية القرآنية تحتوي على أسماء وأفعال، ترجع إلى لهجات نشأت وترعرعت في بلاد الشام التي هي جزء من جزيرة العرب.

وقد كتبنا في صفحات سابقة مقارنة بين اللغة العربية الجديدة (الأخيرة)، واللهجات العربية العتيقة؛ لنبين أن الأصل والجذر واحد، وإن اختلفت لهجة الألفاظ. وسوف أعود للشرح والمقارنة، لنثبت أن اللغة العربية عمرها آلاف السنين، وأن اللغة العربية ـ التي نتكلم بها اليوم ـ موصولة النسب باللهجات العربية القديمة التي وصلتنا منها نصوص مكتوبة قبل الميلاد بآلاف السنين، وكلها تدخل في باب «اللسان العربيّ» وكان في زمن نزول القرآن: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾، أي: يفهمه جميع العرب الذين سمعوا الوحي؛ لأنهم ألفوه مدة طويلة.

وهناك «لسان عربي» غير مبين، عند المخاطبين الأولين بالقرآن، وهو اللهجات العربية العتيقة، ولكن ذلك لا يخرجها عن كونها (عربية).

لقد أصبح الفرق بين العربية العتيقة، والعربية الأخيرة، كالفرق بين اللغة العربية الفصيحة، واللهجات الدارجة في السوق والبيت، فكلتاهما عربية، ولكن الأخيرة تفقد بعض القواعد التي تحكم اللغة الفصيحة . . مع أن كثيراً منها يوافق مذهباً من المذاهب النحوية، أو هي موروثة عن اللهجات العربية القديمة، مع أن للهجات العتيقة قواعد قد تميزها في بعض عباراتها عن اللغة العربية القرآنية .

قلت: إن العلاقة بين العربية القرآنية، واللغة الكنعانية، أو الآرامية مثلاً، علاقة وثيقة، علاقة جذرية وقاعدية، وليست مبنية على المشابهة الشكلية، أو مشابهة مبنية على التأويل؛ كالمشابهة التي تلحظ بين العربية، واللغة الإنجليزية، أو اللغات اللاتينية؛ كالمشابهة التي نبش عنها مَنْ يرى أن العربيّة أصل اللغات، وأقدمها[1] .

---

(1) من ذلك بحث مستفيض للشيخ (محمد أحمد مظهر) في «مجلة الأديان» التي كانت تصدر بالإنجليزية في الباكستان، ونشره تباعاً تحت عنوان (العربية أم جميع اللغات). وسرد فيه مئات من الكلمات الأجنبية يحسبها من مشتقات العربية، على صورة من الصور اللفظية أو المعنوية، وقد وفّق في بعض الكلمات، ولكنه أوغل في التخريجات المتتابعة للوصول بالكلمة إلى جذرها العربي فيما يراه. فهو يقول مثلاً: إنَّ كلمة الذرّة Atom (أتوم) معناها لا يتجزأ، أو لا ينقطع، فهي على هذا مأخوذة من كلمة «قطم» العربية بمعنى قطع؛ لأن الهمزة الأولى زائدة بمعنى النفي في اليونانية، و«توم» هي (قطم) بعينها إذا لاحظنا أن الأوربيين يضعون التاء موضع «الطاء».

وقال: إن كلمة Bit (بت) في الإنجليزية بمعنى قطع، وهي من مادة (بتّ) العربية.

وقال: إن كلمة Arrive (أرايف) في الإنجليزية بمعنى وصل إلى المرفأ مأخوذة من «أرفأ» العربية بهذا المعنى.

وقال: إن كلمة Aspire (أسبير) في الفرنسية بمعنى تنفس مأخوذة من الزفير باللغة العربية.

وقال: إن كلمة Capitve (كبتف) بمعنى الأسر والحبس مأخوذة من مادة الكف العربية. عن «أشتات مجتمعات» لعباس العقاد.

قال عباس العقاد: ونحن نعتقد أن اللغة العربية أقدم من معظم اللغات الحديثة، وأن شواهد سبقها في القدم تزيد على الشواهد التي يستدل بها على سبق أقدم اللغات الأخرى. ويرى أن المقارنة يجب أن تتخذ وسيلة اشتقاق الحيوان في اللغة. فإن اللغة التي ترجع الأسماء فيها إلى مصدر مفهوم من مصادرها، تسبق اللغات التي تتلقى هذه الأسماء جامدة منقولة، بغير معنى يؤديه لفظها الدال عليها في أحاديث المتخاطبين بها.

فأسماء الأسد، والكلب والنسر والصقر . . إلخ وعشرات غيرها من أسماء الحيوان، هي كلمات ذات معنى يفهمه المتكلمون بها، ويطلقونه أحياناً إطلاق الصفات عند المشابهة بين هذه الحيوانات وبين غيرها في إحدى صفاتها ـ يُقال: أسد الكلب للصيد: أغراه به، وأسد عليه: اجترأ ـ، ومعنى هذا أن العرب =

obeikandi.com

أما المقارنة بين عربية القرآن، واللهجات العربيـة العتيقـة، فـهي مختلفـة تماماً؛ لأنها لا تحتاج إلى تخريجات وتأويلات بعيدة، وأذكر الأمثلة لذلك:

كلمـة «أب» في العربية، يقابلـها في الكنعانيـة «أب»، وفي الآراميـة «أبـا»، وفي البابلية «أبو». والواو محذوفة من العربيـة، وأصلـها «أبـو»، وكلمـة«ابـن» في العربية يقابلها «بنو» في البابلية، و«بن» في الكنعانية، و«بر» بالراء في الآرامية.

والمعروف أن نحاة العربيـة يقولـون إن أصـل «ابـن» بنـو، وأن الـواو محذوفـة، وقد عوض عنها الألف في أوله. أما كلمة «بر» في الآرامية، فقد جاءت بالمعنى. ففـي العربية «برَّ» بمعنى أطاع، والابن البرّ، والبار: المطيع لوالده، والمحسن إليه. والمقارنـة في هذا الباب واسعة، وتظن في كثير مـن الأحيـان أنـك تقـارن الشـيء بالشـيء نفسـه؛ لشدّة التقارب، أو المطابقة.

وانظر في أي معجم من معاجم اللغات العتيقة على سبيل المثال: المفردات الدالة على أعضاء الجسم، والعدد، وصلات القرابـة ومختلـف مرافـق الحيـاة المألوفـة لـدى أسـلافنا في العصـور القديمـة وحتـى صـدر الإسـلام، إضافـة إلـى التشـابه في الضمـائر والحروف وأسماء الإشارة.

حتى الكلمات التي قد نرى لفظـها مخالفـاً للمعنـى الـذي تـدلُّ عليـه في العربيـة يمكن تأويلها، وربما نعدّها من المترادف للمعنى..

ففـي الآراميّـة «مـرا» سـيد. و«مـراي» سـيدي. وفي السـريانية «مـار» سـيد، يقولون: مار جرجس، ومار الياس، بمعنى القديس أو السيد.

وفي مادة «مرر» العربية: المرّة: القوة وشدة العقل. ورجل مرير؛ أي: قوي ذو مرَّة. وفي الحديث: «لا تحلّ الصدَقة لغني، ولا لذي مِرّة»، والمرير والمريرة: العزيمة.

= عرفوا هذا الحيوان، وهـم يتكلمـون بلغتهم هـذه، ويستخدمونها للوصف أو للاشتقاق والمجـاز، ويشرح تبعية الكلمات ثم يقول: ويقابل هذا في الإنجليزيـة أسـماء كلها منقولـة مـن غيرهـا، أو مقصـورة على مسمياتها التي لا يعرض لها التصريف في لهجات الخطاب. فالأسد Lion من ليـو اللاتينيـة، أو مـن ليث بالعربية. والحصان Horse من (روس) الجرمانية.. «أشتات مجتمعات» (16 ـ 18).

وإذا كانت «مار» بمعنى السيد، فإن السيد يكون قوياً ذا مِرّة وذا مريرة. ولا يكون السيد إلا ذا مرّة. ويسوّد الناس ذا المرّة..

قلتُ: هناكَ اختلاف في بعض القواعد، مثالها: أن أداة التعريف في العربية هي «ال» نقول: الكرسي، والبيت. ويقال في الآرامية: «كرسا» و«بيتا»، فتكون الألف في الأخير «الـ» التعريف، ومنها أسماء القرى والمدن: دوما، حرستا، فالوغا، حمّانا، ببيلا، عقربا، مسرابا. وفي بعض اللهجات تكون الهاء في أول الاسم أداة التعريف: مثل: هَشِّيمِش: الشمس.

هذا، وقد أسرفت في الحديث عن «لسان قريش»، وقد يظن بعض القرّاء أن هذا الحديث غير ذي صلة بموضوع الكتاب. والحقيقة أن له صلة قويّة؛ لأنَّ التاريخ ليس ما عرفناه في الكتب المطوّلة «ضرب زيدٌ عمراً»، أو تولى فلان الحكم، ودالت دولة فلان، فالتأريخ يشمل جميع مناحي الحياة الاقتصادية والأدبية والاجتماعية واللغوية.. إلخ.

• وأردت أن أصحح مفهومات ضيقت مسرح العرب والعروبة واللغةَ العربية، فحصرنها في أقاليم دول الخليج العربي، واليمن، وضيقوا زمن اللغة العربية فجعلوه العصر الإسلامي، أو قبله بقليل.. وتجرأ نحاة العربية، فجعلوا الأسماء الواردة في اللهجات العربية العتيقة، التي نشأت في الشام والعراق، جعلوها أعجمية، فقالوا: إن إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب ويوسف.. أسماء أعجمية، ولذلك منعوها من الصرف للعلمية والعُجْمة.

ومن عجائب اللغويين العرب: أنهم حكموا على سريانية الكلمة بأنها ليست عربية؛ لأن أهل الشام تكلموا بها؛ فالجواليقي ينقل في كتاب «المعرَّب»: أن أهل الشام يسمون القرية: «الكفر»، قال: وليست بعربية، وأحسبها سريانية معرّبة، وكأنه يقول: «عربية معربة»؛ لأن السريانية لهجة آرامية، والآرامية لهجة عربية. وروي عن أبي هريرة قوله: «ليخرجَنَّكُم الروم منها كَفْراً كفْراً[1] إلى سنبك من الأرض، قيل: وما ذلك السنبك؟ قال: حِسْمى جذام».

---

(1) يظهر أن هذا كلام أبي هريرة.. والضمير في قوله: «منها»؛ أي: من قُرى الشام، والحدود التي ذكرها «حسْمى جُذام» هي في آخر حدود السعودية من الشمال، وآخر حدود الأردن من الجنوب. وهي البلادَ التي كانت تحت سيطرة الروم قبل الفتح العربي. و«الروم» بعد زوال اسمهم بفتح =

وقوله: «الكفْر» بمعنى القرية غير عربي، قول غريب، مع أن مادة «كفر» بمعنى زرع، موجودة في أصل اللغة، ويكفي دليلاً عليها قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾؛ أي: أعجب الزُّراع نباته. والكافر: الزرّاع؛ لستره البذر بالتراب..

والكافر ـ ضد المؤمن ـ هو مجاز منه؛ لأنه غُطّيَ على قلبه..

إن لغة أهل الشام العتيقة: الكنعانية، والآرامية، لغة عربية، وها قد جاء القرآن بها.

= بلادهم (تركيا) الروم، هم ورثة الروم، وهم الأوربيون، والأمريكان. والحديث يدعونا إلى الوقوف عنده طويلاً، فهو تحذير للعرب.. ومحاولات إخراج العرب من بلاد الشام لم تنقطع، منذ الفتح العربي، بلغت ذروتها بالهجمة الفرنجية الصليبية، ومن يومئذ إلى اليوم لم تفتر همة الروم في إخراج العرب من بلاد الشام.. واليهود هم أداة الروم لطرد العرب، فهي هجمة فرنجية اتخذت نجمة داود شعاراً. فهل استيقظ العرب في الشام؟.

obeikandl.com